دلالة صيغة الماضي على الزمان الماضي

أ.د. عبد الحميد النوري عبد الواحد

عضو هيئة التدريس بجامعة أمّ القرى

المملكة العربية السعودية

الاستلام	2018/11/7	المراجعة	2018/11/23	النشر	2018/12/31

الملخّص:

إنّنا نروم في هذا المقال أن نتناول مسألة الزمان، وذلك من خلال ما توحي به صيغة الماضي. محاولين أن نبيّن أن صيغ الأفعال، أي الماضي والمضارع والأمر، لا تعبّر بالضرورة عن الزمان، وإن كانت لا تخلو من أبعاد زمانيّة. ولا يتجلّى الزمان حقيقة إلّا من خلال أبعاد أخرى من نحو الوِجهة Aspect والوجه Mode، فضلا عن الأبعاد المعجميّة والتركيبيّة والسياقيّة. الأمر الذي يجعل الزمان مقولة على غاية من الثراء، وليس صحيحا أن الزمان في العربيّة فقير، وهو يقتصر على أن يكون الحدث فيه إمّا تامّا أو غير تامّ، أو هو في طور التحقّق.

كلمات مفاتيح:

الزمان، الحدث، الجهة، الوجه، صيغة الماضي.

Signification du passé sur le temps passé

Prof. Abdel-Hamid Alnoury

Oum Al-Qoura University

KSA

Received	7/11/2018	Revised	23/11/2018	Published	31/12/2018

Resume:

Nous tenterons dans cet exposé de soulever la question du temps linguistique en arabe, et de bien démontrer que le verbe en accompli ne représente pas vraimemt, et dans tous les cas le temps passé. Par ailleurs le passé nécessite à faire appel à l´aspect, au mode et aux traits lexicaux, syntaxiques et contextuels.

Mots clés:

Temps, verbe, aspect, mode, accompli.

لقد شاع في العربية أنّ للفعل ثلاث صيغ هي الماضي والمضارع والأمر. والفعل عند النحاة هو "ما دلّ على حدث واقترن بزمان"[1] بعبارة الزمخشري. ويرى ابن يعيش من جهته في تعليقه على كلام المصنّف: "الفعل كلّ كلمة تدلّ على معنى في نفسها مقترنة بزمان"[2]، أي هو كلمة دالّة على معنى في نفسها، ودلالتها هي الدلالة على الحدث. والحدث لا بدّ له من زمان يجري فيه، وهذا الزمان إمّا ماض أو حاضر أو مستقبل، وهو الزمان الوجودي أو الزمان الفلكيّ الذي يجري في الواقع المعيش. والزمان الواقعيّ يختلف حتما عن الزمان اللغويّ أو اللسانيّ، وما الزمان اللسانيّ إلّا صورة تقريبيّة له. والعربيّة مثلما سنرى لاحقا لا تعبّر عن الزمان من خلال الفعل وحده، وإنّما تعبّر عنه بكيفيّات مختلفة. وما الفعل إلّا مظهر من مظاهر تحقّق الزمان في اللغة. وما دام الزمان ماضيا وحاضرا ومستقبلا، كانت الأفعال كذلك، تتحقّق مع تحقّق الزمان وتنتفي بانتفائه. ولقد سبق أن أشار سيبويه إلى هذا البعد الزمانيّ في حديثه عن الأفعال، وهو يقول: "بنيت الأفعال لما مضى، ولما يكون ولم يقع، وما هو كائن لم ينقطع"[3]. وما مضى هو ما تحقّق وانتفى، وما يكون ولم يقع، هو ما لم يتحقّق بعد، أي هو المستقبل، وما هو كائن لم ينقطع هو الحاضر، وهو ممتدّ قبل أن ينقطع، بمعنى هو يجري في الزمان. والحاضر هو الحيّز الزمنيّ الفاصل بين الماضي والمستقبل.

ولا يفوتنا أن نشير في هذا المضمار إلى أنّ بعض الحكماء لا يرون في الزمان إلّا الماضي والمستقبل. وهم ينكرون الزمان الحاضر. وما الحاضر عندهم إلّا "الآن الموهوم الذي هو حدّ مشترك بينهما بمنزلة النقطة المعروضة على الخطّ، وليس جزءا من الزمان أصلا"[4]. ولعلّ هذا الرأي هو ما شاع في المذهب الكوفي بأنّ عندهم ماض ومستقبل ودائم. والدائم يعبّرون عنه بصيغة اسم الفاعل لا بصيغ الأفعال، باعتبار أنّ اسم الفاعل يدلّ على حدث، ولكنّه في زمن مطلق أي غير محدّد. وإن انتقد الزجاجيّ رأي الكوفيّين، إلّا أنّه لا يختلف عنهم في عدم القول بالحاضر، إذ الزمان عنده ينقسم إلى قسمين الماضي والمستقبل لا غير، وهو لا يعطي لصيغة الأمر محتوى زمانيّا[5].

ويظلّ رأي النحاة البصريّين هو الشائع. وهم يقولون ومن باب التجوّز لمّا انقسم الزمان إلى ثلاثة انقسمت الأفعال كذلك. ويقول ابن يعيش في الغرض: "فالماضي ما عدم بعد وجوده فيقع الإخبار عنه في زمان بعد زمان وجوده.. والمستقبل ما لم يكن له وجود بعد، بل يكون زمن الإخبار عنه قبل زمان وجوده. وأمّا الحاضر فهو الذي يصل إليه المستقبل، ويسري منه الماضي، فيكون زمن الإخبار عنه هو زمان وجوده"[6]. لهذه الاعتبارات قسّم النحاة الفعل إلى ماض ومضارع وأمر، وجعلوا الماضي إزاء الماضي، والمضارع إزاء الحاضر، والأمر إزاء المستقبل، وهذا لا يستقيم ولعلّه من باب تبسيط وتسهيل الأمور. إلّا أنّهم ومن باب الملاحظة يتداركون هذا عندما يتعمّقون في تفاصيل المسائل. فالماضي وإن دلّ على الزمان الماضي، هو ليس كذلك في كلّ الحالات. ومفهوم المضارع مثلما يشير إلى ذلك المصطلح ذاته لا علاقة له بالزمان، وإنّما يشير إلى مضارعة الفعل للاسم. وأمّا الأمر فهو لا يفيد المستقبل ولا الزمان أصلا، وإنّما يفيد الطلب. ولتبرير هذا الربط بين الصيغ والزمان يثير النحاة مسألة الإخبار. والإخبار يتعلّق بالمخبر أو المتكلّم، أي اللحظة التي يتحقّق فيها الخطاب، واللحظة التي يتحقّق فيها الفعل أو الحدث. وتبعا لهذا فإنّ الفعل في العربيّة، وإن عبّر عموما عن الزمان، فهو يشير إلى زمان مخصوص. وهو ما يجعل دلالة الزمان متباينة ومتفاوتة، ولا يمكن رصدها من خلال الفعل وحده.

الزمان الوجوديّ والزمان اللسانيّ:

يفرّق اللسانيّون والفلاسفة بين الزمان الوجوديّ أو الزمان الفيزيائيّ والزمان اللسانيّ. وهذا الاختلاف ناتج عن الاختلاف بين الواقع واللغة، إذ الواقع أشمل وأعمّ. والتعبير عنه باللغة ما هو إلّا تعبير من باب التقريب لا غير. ولا أحد يقول بالتطابق بين اللغة والواقع، أو بين اللغة والفكر. صحيح أنّ اللغة على غاية من التعقيد، ولكنّ الواقع الوجودّي ليس أقلّ تعقيدا في كلّ الحالات.

ويطلق على الزمان الحقيقيّ الزمان الوجوديّ والزمان الفيزيائيّ والزمان الفلسفيّ، والزمان الفلكيّ. وهو يتعلّق عموما بالدورة الفلكيّة. وهو زمان تعاقبيّ، وزمان حسابيّ يتعلّق بحركة الأجرام السماويّة. وهو خطّي ودوريّ[7]. أي هو يسير وفق خطّ مستقيم ليس له بداية ولا نهاية، إلى أن يُفني الله العالم وما فيه. وهذا الزمن التعاقبيّ له دورة أو دورات كاملة، تُعدّ بالفصول وتعاقب الليل والنهار، وحركة المدّ والجزر. وهو يقدّر بالساعة والشهر والسنة وغيرها.

والزمان "وسط متجانس حسب تعبير بعض الفلاسفة"[8]، وهو "وسط متجانس غير محدود تمرّ فيه الأحداث متلاحقة"[9]. وهو ومن وجهة النظر اللسانيّة مفهوم أو مقولة من مقولات اللغة والنحو[10]. والزمان الحقيقيّ في الواقع غير مدرك، ولكن له آثار يُعرف بها، أو هي دالّة عليه، وذلك من نحو الشيخوخة لدى الإنسان، والموت والفناء، والتلف الذي يلحق بالأشياء، وبكلّ ما هو ماديّ محسوس.

وأمّا الزمان اللسانيّ، ومثلما سبق أن ألمحنا إليه، فلا تعبّر عنه الأفعال في علاقتها بالحدث وحدها، وإنمّا تعبّر عنه جملة من الظواهر اللسانيّة، يُجملها اللسانيّون والنحاة عموما فيما يلي:

- الفعل يدلّ على الحدث. والحدث قد يتحقّق في الماضي أو الحاضر أو المستقبل.
- بعض الأسماء تدلّ أيضا على الزمان والوقت، وذلك مثل السنة واليوم والليلة.
- بعض الظروف تحيل على الزمان أيضا، وذلك من نحو "حين" و"خلال" و"طوال".
- بعض الوحدات النحويّة أو التركيبيّة التي تدخل في التركيب هي بدورها تؤثّر وتغيّر من دلالة الزمان. وذلك من نحو "كان" التي تحيل على الماضي، سواء تعلّقت بصيغة الماضي أو المضارع، و"ما دام" الدالّة على الكينونة الدائمة، و"ظلّ" الدالّة على الاستمراريّة، وغيرها. وكل هذه الوحدات ما أن تدخل على التركيب حتّى تحيل زمانه إلى وجهة غير الوجهة التي كان عليها.

ومن الملاحظ أنّ دلالة الأفعال في حدّ ذاتها قد توحي بأبعاد زمانيّة معجميّة لا صيغيّة ولا تركيبيّة، وذلك من نحو أنّ دلالة "سقط" مثلا تختلف عن دلالة "جرى"، وأنّ دلالة "شبع" تختلف عن دلالة "أكل" أو "التهم". والفارق بين هذه الأمثلة، فارق زمانيّ، وذلك من حيث استرسال الفعل واستغراقه للوقت أو الزمان.

هذه المقوّمات التي يقوم عليها الفعل في العربيّة تبيّن بما لا يدعو إلى الشكّ، بأنّ ليس الفعل الماضي وحده دالّا على الماضي. وإنّما هناك مقولات مختلفة تعبّر عن الماضي، فيها ما يرجع إلى تصريف الأفعال، وفيها ما يرجع إلى التركيب، وفيها ما يرجع إلى الدلالة المعجميّة. وكلّ هذا يعبّر عن مدى ثراء مقولة الزمان، ومدى التداخل الحاصل بين مقوّماته.

ومن باب التمثيل يكفي أن نشير إلى الأمثلة التالية:

خلقَ اللهُ السماواتِ والأرضَ بالحقّ

الذينَ كفرُوا بالله هم أصحابُ النار

إذا بلغنَ أجلَهنّ فأمسكوهُنّ بمعروف

أعدَّ اللهُ للكافرينَ عذابا شديدا

واضح من خلال هذه الأمثلة أنّ صيغ الفعل كلّها جاءت في صيغة الماضي. بيد أنّها، ومن باب الملاحظة، لا تحيل كلّها على الزمن الماضي. فإذا كان الفعل دالّا على الزمان الماضي في "خَلق" و"كَفروا"، فإنّه ليس كذلك في الفعلين "بَلغن" و"أعدّ".

إنّ الفعل "خلق" في الجملة الأولى لا يدلّ في الحقيقة على الماضي، وإنّما يدلّ على الماضي البعيد، أو ماضي الماضي، لأنّ الأمر يتعلّق ببداية الخلق. ولا أحد بقادر على أن يعرف هذه البداية. وإنّ الفعل "كفروا" المبنيّ للجمع الغائب يدلّ على الزمان الماضي أيضا، ولكنّه جاء متعلّقا بالموصول الاسمي "الذين"، واسم الموصول في الاستعمال بحاجة إلى صلة. والصلة تحدّد أصحاب النار، وأصحاب النار هم الذين كفروا في أيّ وقت وأيّ زمان. ودلالة الزمان في هذا المثال مطلقة وليست محدّدة، وتشمل الماضي البعيد والماضي القريب، بل هي قد تنسحب على المستقبل أيضا، قبل أن يقوم يوم الحساب والعقاب.

وأمّا الفعل "بَلغن" فلا يحيل على الماضي المحض، وإنّما يحيل على المستقبل. وذلك بسبب دخول "إذا" الشرطيّة عليه، ما يجعل الجملةُ جملةً شرطيّة، وما يجعل جملة جواب الشرط متعلّقة بجملة الشرط، وهذا التلازم بين الجملتين، أو بالأحرى بين الفعلين، وإن جاءا في صيغة الماضي لا يحيلان على الماضي، وإنّما هما يحيلان على زمن مطلق، قد يشمل الماضي والمستقبل أيضا.

وأمّا الفعل "أعدّ" وإن كانت دلالته واضحة في الإحالة على الماضي، باعتباره صيغة ماضية، إلّا أن المعنى المستفاد منه لا علاقة له بالماضي، وإنّما هو يمتدّ إلى المستقبل، ونفهم هذا من خلال سياق الكلام. لأنّ الأمر يتعلّق بما يعدّه الله للكافرين يوم الحساب. ويوم الحساب في علم الغيب ولا يعلمه إلّا الله، ولعلّه ما زال بعيدا بعيدا.

واضح من خلال هذه الأمثلة، وإن جاء الفعل في كلّ الحالات في صيغة الماضي، إلّا أنّه لا يشير دائما وأبدا إلى الزمان الماضي. وفي الحالات التي يشير فيها إلى الماضي يتبيّن لنا أنّ الزمان الماضي ليس واحدا، وإنّما هو متعدّد. وذلك بالنظر إلى الزمان الحقيقي الذي قد لا يكون له حدّ أو نقطة بداية، وإنّما هو ماض مطلق، قد يكون قريبا منّا أو بعيدا، أو بعيدا جدّا. وواضح أيضا أنّ الذي جعل الالتباس حاصلا في صيغة الماضي في تعبيرها عن الزمان الماضي، أنّ السياق من شأنه أن يغيّر من دلالة الزمان، وأنّ التركيب يفعل ذلك أيضا، وهو ما سنقف عليه لاحقا.

صيغة الماضي والزمان الماضي:

إذا أردنا أن نعبّر عن الزمان الماضي فلسنا بحاجة إلى أن نلجأ إلى صيغة الماضي دائما وفي كلّ الحالات. ذلك أنّ صيغة الماضي مثلما بيّنّا شديدة الطواعيّة والمرونة، ولا يُعتمد عليها وحدها لتحديد الزمان. وإنّما يمكننا أن نعبّر عن الماضي بكيفيّات مختلفة، وبتفاوت في التعبير عن هذا الزمان.

ولنأخذ مجدّدا الأمثلة التالية:

خلقَ اللهُ الأرضَ والسماء

دمَّرَ اللهُ ما كان يصنعُ فرعونُ وقومُه

إنْ كانَ كبُر عليكُم مقامِي فعَلى الله توكلتُ

في هذه الأمثلة، ومثلما يمكن ملاحظته، وردت خمسة أفعال، منها أربعة جاءت في صيغة الماضي. وواحد في صيغة المضارع، فضلا عن استعمالين ل"كان" الناسخة. ولا يخفى أنّ هذه الاستعمالات كلّها تحيل على الماضي، وإن اختلفت الصيغة أو التركيب.

فأمّا الجملة الأولى فقد تضمّنت الفعل "خَلق" في صيغة الماضي. وهي تحيل على الزمان الماضي ولا شكّ، بل هي تحيل على الماضي البعيد. وفي الجملة الثانية لا يختلف الفعل "دَمّر" عن الفعل "خَلق"، وإن كان الزمان ليس واحدا، لأنّ الفعل "خلق" مثلما أشرنا إلى هذا، يتعلّق بخلق العالم أو الكون، في حين أنّ الفعل الثاني "دمّر" يتعلّق بعهد سيدنا موسى عليه السلام، أي بحقبة تاريخيّة معيّنة.

وأمّا الفعل "يَصنع" وإن جاء في صيغة المضارع، فهو يدلّ في هذا السياق على الماضي، وذلك نتيجة دخول "كان" عليه. و"كان" فعل كينونة. وهو يحيل على الماضي، ومجيئه مع الفعل المضارع دالّ على استمرارية الفعل أو امتداده في الزمن الماضي. وليس في هذه الحالة وحدها تدلّ صيغة المضارع على الماضي، وإنّما هي تدلّ على الماضي أيضا بدخول "لم" النافية والجازمة عليه، وكذلك "لمّا"، مثلما تدلّ على المستقبل بدخول "لن" النافية والناصبة عليه أيضا. والفعلان "دمّر" و"يَصنَعُ" في الجملة الثانية يحيلان على الزمان الماضي، وإن اختلفت صيغتهما. فيدلّ الأوّل على الزمان بصيغته، في حين يدلّ الثاني تبعا للتركيب، والسياق المستفاد منه.

ومن باب الملاحظة أيضا، لا تدخل "كان" الناقصة على الفعل المضارع لتحيله إلى الزمان الماضي وهو الشائع، وإنّما تدخل على الفعل الماضي أيضا. وذلك من نحو المثال الأخير في أمثلتنا السابقة. وتُحقّق "كان" مع الفعل "كبُر" الزمان الماضي، وإن تضمّن معنى الاستقبال، وذلك نتيجة الشرط المتمثّل في دخول "إن" على جملة الشرط والتي تتطلّب جملة الجواب. وجملة الشرط وجملة الجواب يعبّر عنهما الفعلان المتلازمان، وتحقّق الفعل الثاني مشروط بتحقّق الفعل الأوّل. وهما لا يتحقّقان في زمان واحد، والفاصل بينهما قد يكون كبيرا أو صغيرا، وذلك بالنظر إلى طبيعة الشرط أو طبيعة الفعلين المتلازمين في حدّ ذاتهما.

وبالنظر إلى كلّ هذا نستنتج أنّ الزمان الماضي لا يتحقّق بصيغة الماضي وحدها، وإنّما يتحقّق بكيفيّات أخرى، منها صيغة المضارع والتراكيب المختلفة التي ترد في سياقات مختلفة. الأمر الذي يجعل الزمان الماضي لا يُنظر إليه من جانب تصريف الأفعال فحسب، وإنّما يُنظر إليه من خلال التراكيب والسياقات المختلفة. ولعلّ هذا كلّه ممّا يدلّ على غنى الزمان في العربيّة، مقارنة بلغات أخرى مثل اللغات الهنديّة الأوروبيّة، ومن نحو الفرنسية مثلا.

صيغة الماضي والدلالة على الزمان عموما:

مثلما سبقت الإشارة إليه أعلاه صيغة الماضي لا تعبّر وحدها عن الزمان الماضي. وإنّما الزمان الماضي يتحقّق بكيفيات متنوّعة. وبالمقابل لا تعبّر صيغة الماضي على الزمان الماضي في كلّ الحالات، وإنّما هي تعبّر عن أبعاد زمانيّة أخرى تتجلّى من خلال الأمثلة التالية:

نجح الطالب

أشرق الصبح

قد قامت الصلاة

بعتك البضاعة

فهمت كلامك

أنجاك الله

مثلما يمكن تبيّنه من خلال هذه الأمثلة، لقد جاءت كلّ الأفعال فيها في صيغة الماضي ولا شكّ، ولكن مثلما يمكن ملاحظته لا تعبّر كلّ هذه الأفعال بالضرورة على الزمان الماضي. ففي المثال الأوّل واضح أنّ الفعل "نجح" يدلّ على تمام الحدث، أي أنّ النجاح وقع وتحقّق، وإن كان من باب الإخبار. وقد تتحوّل هذه الجملة إلى جملة ثانية من نحو "قد نجح الطالب" لتفيد التحقيق، وذلك بدخول "قد" عليها.

وفيما يتعلّق بالجملة الثانية، واضح أنّ الإشراق في الفعل "أشرق" ليس محصورا في الزمان الماضي، وإنّما هو يعبّر عن إطلاقيّة في الزمان، لأنّه فعل دوريّ متكرّر يخضع لدورة الزمان نفسها، وهو يتحقّق في الحاضر مثلما يتحقّق في الماضي والمستقبل أيضا.

وأمّا بشأن الفعل "قام" في المثال الثالث، فإنّ الفعل لا يتعلّق بالزمان الماضي، وإنّما يتعلّق بزمان قريب جدّا على وشك الحصول، لأنّ الصلاة لم تقم بعد، أو سوف تقام قريبا جدّا، أي بعد القول مباشرة.

وأمّا الفعل "باع" في المثال الرابع، وإن جاء صريحا في صيغة الماضي، إلّا أنّه يدلّ على حدث آنيّ، حصل في لحظته أو إبّانه، أي في حالة النطق به في الزمان الحاضر، وهو ما يقع عادة في العقود والمواثيق وما شابهها. والشيء نفسه يقع في فعل "فهم"، إذ هو لا يدلّ على الزمان الماضي، وإنّما يدلّ على الزمان الراهن أي الحاضر، وهو متعلّق بالخطاب وسياق الكلام الحاصل بين المخاطِب والمخاطَب. وهو ما نجده في أفعال كثيرة من نحو "أبدعتَ" و"أحسنتَ" و"أدركتُ كلامك" و"علمتُ قصدك" وغيرها.

وأخيرا وفيما يتعلّق بالمثال الأخير، وإن كانت صيغة الماضي واضحة، إلّا أنّ الفعل يدلّ على الزمان المستقبل، بل المستقبل البعيد أي يوم يقوم الحساب والثواب والعقاب. وهذا النوع من الأفعال كثير في العربيّة، سواء تعلّق الأمر بدعاء الخير أو الشرّ.

ولا يقتصر الأمر في دلالة صيغة الماضي على الحاضر أو المستقبل من خلال الأمثلة التي ذكرناه، وإنّما هو يشمل حالات أخرى كثيرة، من نحو مجيء صيغة الماضي مع أسلوب الشرط من نحو "إذا جئتني أكرمتك"، أو مع الظرف "لمّا" من نحو قولنا "لمّا جاءني أكرمته"، ومن نحو ما تعبّر عنه بعض الأفعال الدالّة على الغرائز الثابتة أو الحالات الطارئة، من نحو قولنا "حسُن وجهُه" و"كبُر" و"مرِض".[11]

الزمان والجهة:

قد لا تكون الأفعال صريحة دائما فيما تعبّر عنه عن الزمان، وذلك من نحو كلّ الحالات التي سبق أن أشرنا إليها في التعبير عن أزمنة مختلفة يمكن أن نستشفها من صيغة الماضي. الأمر الذي يجعل الفعل في صيغة الماضي يذهب مذاهب شتّى، ويروم جهات عدّة راجعة كما بيّنّا إلى طبيعة الفعل في حدّ ذاته، وطبيعة التراكيب والسياقات الحافّة بالأفعال. وهذه الجهات التي تجذب إليها الفعل وزمانَه هي ما نعبّر عنها عادة بـ **الجهة** Aspect وقد يعبّر عنها بعضهم بـ**المظهر**.

والجهة بتعبير جون ديبوا Dubois هي مقولة نحويّة يدرك بها المتكلّم مسار الفعل أو الحدث وسريانه أو مدّة هذا السريان وانقضائه[12]. وتُحدَّد الجهة عادة بالمقابلة بين الفعل المنقضي وغير المنقضي، أو بين الفعل التام Perfect وغير التامّ Imperfect. والفعل التام هو ما تمّ وانقضى، وغير التام هو ما لم يتحقّق بعد، أو هو في طور التحقّق. ويرى ديبوا أنّ كلّ اللغات تعرف هذه المقابلة بين التام وغير التام، بما فيها اليونانيّة واللغات الهنديّة الأوروبيّة. ولعلّ اللغات الأمثل الدالّة على هذه المقابلة الجهيّة هي الروسيّة واللغات السلافيّة[13]. واللغة العربيّة ليست في الحقيقة بمنأى عن هذا. ويرى كثير من المستشرقين أنّ اللغة العربيّة هي لغة جهيّة. والمقابلة بين الفعل التامّ والفعل غير التامّ واضحة فيها، وهي المقابلة بين الماضي Accompli والمضارع Inaccompli.

ويرى ريجيس بلاشير Blachère في هذا المضمار أنّ "تصريف الأفعال في العربيّة فقير، وذلك إذا ما قارنّاه بتصريفها في الألسن الهنديّة الأوروبيّة"، ويضيف بلاشير في هذا الصدد قوله: "وتجدر الإشارة أوّلا بأنّ مفهوم الزمن لا يحظى بموقف صلب.. وليس هناك ما يشير إلى أنّ الحدث قد تحقّق في الماضي أو الحاضر أو المستقبل"[14]. إنّ هذا الحكم الذي قضى به بلاشير على العربيّة لا يخلو في الحقيقة من بعض التجنّي، وهو خال من الموضوعيّة، لأنّ مقولة الزمان مثل بقيّة المقولات لا تتحقّق في اللغات المختلفة بكيفية واحدة. وكلّ لغة لها سماتها الخاصّة وطرق تعبيرها المختلفة. ولا يجوز في الحقيقة فهم قوانين لغة ما بإسقاط قوانين لغة أخرى عليها. وهذا ما حاول أن يفعله بلاشير ومستشرقون آخرون في حكمهم على العربيّة انطلاقا من اللغات الهنديّة الأوروبيّة ومن اللاتينيّة.

ويرى بلاشير مثل مستشرقين آخرين أنّ الفعل في العربيّة ينقسم إلى قسمين، هما الفعل التام Perfect والفعل غير التام Imperfect. ويقابل التام عند النحاة مصطلح الماضي، ويقابل غير التام المضارع. وهذا التقسيم جهيّ وليس زمانيّا، باعتبار أن الزمان في الأفعال عندهم منعدم أو هو ضعيف جدّا.

وفيما يتعلّق بالجهة يحصر بعض النحاة أو اللسانيّين الدلالات الجهيّة في المظاهر التالية:

- الدلالة على اكتمال الحدث، وذلك من نحو "جاء زيد".

- الدلالة على اكتمال الحدث في لحظة التلفّظ وجريانه أو استمراره، وذلك من نحو قولهم "أنعم الله عليهم"، أو مثل ما يجيء في العقود والمواثيق من نحو قولنا "بعتُك" و"زوّجتُك".

- الدلالة على أنّ الحدث قد حصل فعلا، إلّا أنّه ما زال قائما، وذلك من نحو قولنا "اتّفق الرواة"، و"أجمع النحاة".

- الدلالة على أنّ الحدث تمّ في حالة التلفّظ، من نحو "أحسنتَ" و"كَفّيت ووفَّيْتَ".

- في التمنّي والدعاء، من نحو قولنا "رحمَه الله" و"باركَ فيك".

- الدلالة على معنى التوكيد أو التوقّع حين يكون مسبوقا ب"قد"، من نحو "قد جاء زيد"[15].

مثلما سبق أن أشرنا إليه، إنّ كلّ هذه الاستعمالات المتعلّقة بصيغة الماضي هي تدلّ على مظاهر جهيّة، يُنظر إليها من خلال جريان الفعل وتحقّقه، وممّا يمكن أن نشتمّه من الأبعاد الزمانيّة التي تعبّر عنها. وهذا يعطي تفسيرات لا نُخفي أنّها لم تكن دارجة في النحو القديم. وجِدّتها لا تعني أنّها كانت غائبة عن تصوّر النحاة، وإنّما الجدّة تكمن في بلورتها، وإعطائها حيّزا من البحث يتعلّق بالزمان وتصريف الأفعال.

وتجدر الإشارة في هذا المضمار أيضا أنّ البحث في قضية الزمان لا يجب أن يتوقّف عند حدود الجهة، وإنّما لا بدّ أن يشمل مسألة ثانية مهمّة، وهي على صلة وثيقة بالجهة، هي مسألة الوجه Mode. ولا يخفى أنّ الجهة والوجه مسألتان متلازمتان، وهما متعلّقتان تعلّقا شديدا بالزمان.

الزمان والوجه:

الوجه بدوره، مثله مثل الجهة مقولة نحويّة أو لسانيّة. وهو مقولة ملازمة للفعل، أو بالأحرى لتصريف الفعل، وهي تعكس طبيعة التواصل بين المخاطِب والمخاطَب، أو موقف المتكلّم من خطابه[16]. ويتجلّى الوجه في الجملة أو من خلال التركيب، فيما يمكن أن يحدّد الجملة، باعتبارها دالة على الإثبات أو النفي، وعلاقة الإثبات أو النفي بالاستفهام، وكلّها تلوينات للجملة أو الكلام أو طريقة الكلام. وعموما إنّ الوجه يعبّر عن الشرط والتمنّي والنفي والطلب، وغيرها من الأساليب.

والعربيّة ليست استثناء في التعبير عن الزمان من خلال الوجه، وإن اختلفت أساليب التعبير. وإن عبّرت بعض اللغات عن الوجه بإلحاق لواصق بآخر الفعل، فإنّ العربيّة تعبّر عن الوجه من خلال وحدات تركيبيّة دالّة، تمكّنها من الوجه ومن الزمان في كلّ مرّة. ولتبيّن تمظهرات الوجه في العربيّة مع صيغة الماضي لننظر في الأمثلة التالية:

جلست حيث جلس

خرج وقد فاز بالجائزة

كنت قد حقّقت نجاحا

ليتني فزت بالجائزة[17]

بداية ومن باب الملاحظة، كلّ هذه الأفعال الواردة في الأمثلة المذكورة جاءت في صيغة الماضي، وإن وردت في تراكيب مركّبة. وهذه التراكيب تتعلّق بالظرف "حيث" في الجملة الأولى، وبالتلازم بين الفعل الأوّل والفعل الثاني. وأنّ الفعل "جلس" الأوّل لا يتحقّق إلّا بعد الفعل "جلس" الثاني.

وأمّا الجملة الثانية فالفعل "خرج" متعلّق بالفعل "فاز". والعلاقة بينهما علاقة حاليّة. وواضح أنّ الفعل الأوّل لا يتحقّق إلّا بعد تحقّق الفعل الثاني.

وأمّا الفعل "حقّق" في المثال الثالث فمتعلّق ب"كان" التي تحيل على الماضي مع "قد" التي تفيد التحقيق. والإحالة على الزمن الماضي لم يعبّر عنها الفعل الماضي وحده، وإنّما عبّرت عنها "كان" الناقصة و"قد" التي تفيد التحقيق في الماضي.

وأما الفعل "فاز" في الجملة الرابعة والأخيرة فهو لم يتحقّق في الماضي، ويبقى من باب التمنّي، وذلك بالرغم من أنّ التعبير عنه جاء بصيغة الماضي.

وتبعا لهذا فهذه أضرب من ضروب الوجه التي تذهب بالفعل والتركيب مذاهب شتّى. وهي تتعلّق بالأساليب المختلفة من نحو الشرط والتمنّي والطلب والنفي والاستفهام. وهي أساليب تتحقّق داخل التراكيب، وتنجزها وحدات تركيبيّة، أطنب النحاة في معالجتها، ولكن من باب التأكيد على الشكل والإعراب، لا من باب التصريف والزمان. ولقد جاء حديثهم عن الزمان وعن هذه الأوجه في هذا المضمار عرضا بمناسبة تحليلهم للمسائل النحويّة. ولعلّ أمثلة الوجه أو الوجوه تتجلّى أكثر مع صيغة المضارع في مصاحبتها للأفعال الناقصة وأفعال الشروع وأفعال الظنّ أو اليقين، وغيرها.

الزمان والسياق:

يعبّر الفعل عن الزمان من خلال بنيته، باعتباره ما دلّ على اقتران حدث بزمان، وإن خلا من أمارات دالّة عليه. والفعل، مثلما أسلفنا القول، دالّ على الحدث باعتباره ماضيا أو حاضرا أو مستقبلا. ولقد سبق أن بيّنّا أعلاه أن الزمان في الفعل، (وذلك باقتصار الحديث عن صيغة الماضي)، لا يتحقّق من خلال الصيغة وحدها، أو من خلال تصاريفها، وإنّما تساهم في تشكّله جوانب معجميّة وتركيبيّة وسياقيّة. وقد تتداخل هذه الجوانب لإبراز الدلالة الزمانيّة، بل الدلالة الزمانيّة والجهيّة والوجهيّة في الآن ذاته. ولا يظهر هذا بصورة واضحة إلّا من خلال الجمل أو التراكيب، ومن خلال سياقات النصّ أو الخطاب، واستعمال مختلف الوحدات الدالّة كالأدوات والظروف والضمائر، وغيرها.

والنصّ أو الخطاب أو الأقوال ممّا تتضافر فيها جملة المستويات اللسانيّة للتعبير عن دلالة الزمان، بل والدلالات جميعها. ذلك أنّ الخطاب يُراعي عمليّة التواصل، ويأخذ بعين الاعتبار المخاطِب والمخاطَب، وتسلسل الوقائع والأحداث، والدلالات المضمرة والمعلنة، ومقاصد الكلام، والأوضاع التواصليّة والمقام، بل وأكثر من هذا الأبعاد الاجتماعيّة والثقافيّة.

وفي محاولة لفهم هذه الدلالات المتعلّقة بالنصّ، لنقف عند الآية الكريمة التالية، من سورة نوح عليه السلام:

"إنّا أرْسَلنَا نوحا إلى قَومِه أنْ أنذِرْ قومَكَ مِنْ قبل أنْ يأتيَهم عَذابٌ أليم"[18]

هذا قول ربّ العالمين أنزله على نبيّه الكريم، وذلك في لحظة تاريخيّة معيّنة، هي لحظة التنزيل، وهذه اللحظة هي لحظة القول. وما يتبعها هو نصّ مقول القول، ونصّ هذا المقول هو نصّ الآية التي جاءت في مطلع السورة. والشاهد في هذا أنّ ربّ العزة هو الذي يوحي أو يتكلّم، وجاء الخطاب بضمير الجمع للمتكلّم، مع التأكيد بالأداة "إنّ".

ولقد تضمّن الخطاب وبصورة واضحة ثلاثة أفعال، وهي تعكس الصيغ الثلاث في العربيّة، ألا وهي الماضي والمضارع والأمر. وبالنظر إلى أنّ الآية تحيل على قصّة نوح، فهي تحيل على الزمان الماضي، ومن هنا جاء الاهتمام بالآية.

إنّ الزمان الماضي المعبّر عن الأحداث التاريخيّة الماضية يتقاطع فيه الزمان الحقيقي أو الوجودي بالزمان اللسانيّ. والسؤال الذي يطرح في هذا الصدد، كيف يعبّر الزمان اللسانيّ عن الزمان الحقيقيّ. حتما إنّ هذا التعبير لا يتعلّق بصيغة الماضي ولا بالصيغ عموما، وإنّما هو يتعلّق بتلوينات في القول، يتداخل فيها مثل ما ذكرنا المعجميّ بالتصريفيّ وبالتركيبيّ والسياقيّ أيضا.

وللإشارة فإنّ اللحظة الزمانيّة الحاضرة هي لحظة القول. ولا يخفى أنّ لحظة القول قد مرّ عليها ما يزيد على الأربعة عشر قرنا، أي هي لحظة التنزيل ولها ظروفها وأسبابها. والمتلقّي لهذا الخطاب الرسول محمّد ﷺ، وذلك عن طريق جبريل. ولحظة القول هذه ليست ثابتة، أو هي في عداد الماضي البعيد، إلّا أنّها لحظة متجدّدة، وذلك بالنظر إلى تلقّي النصّ القرآنيّ من متلّقيّين مختلفين، إلى أن يرث الله الأرض وما عليها، ويتمّ رفع القرآن.

إنّ لحظة القول هذه تمتدّ في اتّجاهين في الآن نفسه، إلى الماضي وإلى المستقبل. والماضي في هذه الحالة هو الماضي البعيد، في إشارة إلى قصّة سيّدنا نوح، الذي أرسله الله إلى قومه. وفي هذا الزمان الماضي لا يخفى أنّ هناك تدرّجا زمانيّا، وإن استغرق زمانا طويلا بالنظر إلى حياة سيدّنا نوح الطويلة. وبالنظر إلى الفاصل الموجود بين وقت الرسالة ووقت الطوفان. والإرسال هو اللحظة التي تحدّد بداية القصّة، ويليها في تتابع خطّيّ الإنذار ثمّ إتيان العذاب الأليم.

هذا البعد الزمانيّ، أو البعد التاريخي لم يعبّر عنه القرآن الكريم مثلما يلاحظ بصيغة الماضي، وإنّما عبّر عنه بصيغة الماضي في إيراد الفعل "أرسلنا" مع التوكيد ب"إنّا". وعبّر عنه بالظرف "قبل" أو "من قبل". ولحظة القبل والبعد تفصل بين الإنذار والعذاب الأليم. ومجيء العذاب مرهون بالمستقبل، أي مستقبل الإنذار لا محالة، وإن كان هو في حدّ ذاته ماضيا أيضا. والتعبير عن الإنذار جاء بصيغة المضارع، وإن سُبق ب"أن" المصدريّة.

وأمّا فيما يتعلّق ب"أن أنذرْ" فالعبارة تتعلّق بصيغة الأمر أو الطلب. والإنذار لا يتمّ فعليّا إلّا بعد إطلاق صيغة الأمر لا محالة.

وتبعا لهذا ومن خلال ما سبق أن ذكرناه، يمكننا تمثّل أبعاد الزمان في هذه الآية، وفق صورة محور خطّيّ لا بداية له ولا نهاية. تحتلّ وسطه لحظةُ القول أو لحظة التنزيل. وتمتدّ هذه اللحظة إلى المستقبل، وذلك بتجديد القول أو الخطاب في كلّ مرّة. وهذا مرتبط بتكرار القراءات للآية المذكورة وللقرآن عموما. ويمتدّ الزمان من الجهة المقابلة، أي إلى الخلف الذي تقع فيه القصّة أو وقائعها، ليمثّل فواصل مختلفة للماضي أو ماضي الماضي. وهذه الفواصل هي زمان الإرسال وزمان الإنذار وزمان العذاب أو الطوفان. وكلّ هذا من شأنه أن يبيّن دلالات الزمان التي لا تقف عند حدود صيغ الأفعال، وإنّما تتعدّاها لتشمل جوانب معجميّة وتركيبيّة وسياقيّة على نحو ما أشرنا إليه سابقا. وهذا يبيّن بما لا يدعو إلى الشكّ بأنّ اللغة العربيّة لغة زمانيّة، وليس الزمان فيها ضعيفا مثلما يخيّل لبعضهم. وإنّما هي لغة زمانيّة بامتياز، وذلك بالنظر إلى التداخل الحاصل بين صيغ الأفعال وما تحيل عليه، وبين الجوانب الجهيّة والوجهيّة التي أشرنا إليها، فضلا عن الخصائص المعجميّة والتركيبيّة والسياقيّة المتعلّقة بها. وليست اللغات كلّها على نمط واحد في التعبير.

قائمة المراجع:

أ- باللسان العربيّ:

- توامة، عبد الجبّار: **زمن الفعل في اللغة العربيّة. قرائنه وجهاته، دراسات في النحو العربيّ**. ديوان المطبوعات الجامعيّة. الجزائر 1994.

- التهانوي، محمّد علي: **كتاب كشّاف اصطلاحات الفنون**. دار صادر بيروت (د.ت).

- جحفة، عبد المجيد: **دلالة الزمن في العربيّة. دراسة النسق الزمنيّ في الأفعال**. دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب 2006.

- الزجّاجيّ، أبو القاسم: **الإيضاح في علل النحو**. تحقيق مازن المبارك. دار النفائس ط 5، بيروت 1986.

- السامرائيّ، إبراهيم: **الفعل زمانه وأبنيته**. مؤسّسة الرسالة، ط 3، بيروت 1983.

- سيبويه، أبو بشر: **الكتاب**. تحقيق عبد السلا هارون. الهيئة المصرية العامة للكتاب ط 2، القاهرة 1977.

- غزالي، مسروحا وعرفان: "تحليل صيغ الفعل وأزمانه في اللغة العربيّة". **الابتكار**، جامعة شيخ نور جاني الإسلاميّة الحكوميّة، المجلد 6 العدد 1، جوان 2017.

- **المعجم الفلسفيّ لمجمع اللغة العربيّة**. الهيئة العامّة لشؤون المطابع الأميريّة. القاهرة 1983.

- ابن يعيش، موفق الدين: **شرح المفصل**. دار صادر، بيروت (د.ت).

ب- باللسان الأجنبيّ:

-Blachère, R et Gaudefroy-Demonbynes, M: **Grammaire de l´arabe Classique**. Maisonneuve 3èd. Paris 1975.

-Battis Telli, Delphine**: La temporalité linguistique circonscrire un objet d´ anayse, ainsi que des finalités à cette analyse**. Université de Nanterre, Paris X, 2009.

-Desclé, Jean Pierre: "Quelques concepts relatifs au temps et à l´aspect pour l´analyse des textes", in **Studia kognitywne**, n 1, Polska Academic Naut, Institut Slawistiki, 1994.

-Dubois, Jean et autres: **Dictionnaire de linguistique**. Larousse, Paris 1994.

-Martin, Robert et Nef, Fréderic; "Temps linguistique et temps logique", in **Language** 15ème année, n 64, Paris 1981.

-Wilnet, Marc: "Le temps linguistique", in **L´information Grammaticale** n 38, Paris 1988.

-Wright, W**: A grammar of the Arabic language**. 3 éd. Librairie du Liban Beirut, 1996.

الهوامش والإحالات:

[1] ابن يعيش: **شرح المفصّل** ج 7 ص 2

[2] المرجع نفسه والصفحة نفسها

[3] سيبويه: **الكتاب** 1/ 12

[4] التهانويّ: **كشّاف اصطلاحات الفنون** ص 910

[5] الزجاجيّ: **الإيضاح في علل النحو** ص 53/ 54

[6] ابن يعيش: **شرح المفصّل** 7/ 4

[7] Desclé, Jean Pierre: "Quelques concepts relative au temps.."

[8] **المعجم الفلسفيّ** لمجمع اللغة العربيّة بالقاهرة ص 95

[9] المرجع نفسه والصفحة نفسها

[10] عبد المجيد جحفة: **دلالة الزمن في العربيّة** ص 25

[11] إبراهيم السامرائيّ: **الفعل زمانه وأبنيته** ص 29/ 30

[12] Dubois Jean: **Dictionnaire de linguistique** p. 53

[13] المرجع نفسه والصفحة نفسها

[14] Blachère: **Grammaire de l´ arabe Classique** p.36

[15] Wright William: **The grammar of the Arabic language** T. 2, p.1

[16] Dubois Jean: **Dictionnaire de linguistique** p. 306

[17] Wright William: **The grammar of the Arabic language** T. 2, p. 2

[18] سورة نوح (1)